مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 08 عدد: 04 السنة: 2019
ص: 211 - 226 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

المدائح النَّبوية في شعر ابن جابر الأندلسي
Prophetic Praise in the Poetry of the Andalusian Ibn Jaber

* لحلو سمهان

Smahan Lahlou

جامعة أبو بكر بالقياد تلمسان/ الجزائر

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي من التأسيس إلى القرن العشرين

University of Tlemcen/ Algeria

تاريخ الإرسال: 2018/10/12	تاريخ القبول:2019/08/28	تاريخ النشر :2019/09/25

مُلخَّص البَحث

يعد ابن جابر الأندلسي من أشهر شعراء الأندلس الذين كتبوا في مدح النبي صلى الله عليه.ذكر لنا في قصائده صِفاته الخِلقِية والخُلُقِيَّة، وشوقه لرؤيته وزيارة قبره، وكذلك الأماكن المقدسة التي ارتبطت بحياته، كما تحدث عن معجزاته ومراحل سِيرته النَّبوية، بالإضافة إلى اعترافه بذنوبه طامعا في نَيل شفاعة النَّبي صلى الله عليه وسلم له.

الكلمات المفتاحية: مدح ; نبي; شعر ; ابن جابر الأندلسي

Article Summary:

Ibn Jaber al-Andalusi is one of the most famous poets of Andalusia who wrote in the praise of the Prophet (peace and blessings of Allah be upon him). He mentioned in his poems the prophet'sphysical and moral qualities, his longing to see him and visiting his grave, as well as the holy places that were associated with the prophet's life. He also spoke about the prophet's miracles and the different stages of his prophetic life. Moreover, in his writings Ibn Jaber confessed his sins hoping to win the prophet's blessings and intercession.

Keywords: praise ; Prophet; poetry; Ibn Jaber Andalusia

* سمهان لحلو. lahou4smahan@gmail.com

تمهيد:

تعد المدائح النبوية فنا من فنون الشعر التي طرقها شعراء الأندلس، ومنهم **ابن جابر الأندلسي** الضرير، وهي من الفنون التي كانت سائدة في البلاد الإسلامية لاعتبار قدسية الممدوح فيها ، وبعد أن سُنت سنة الاحتفال بالمولد النبوي ، أصبح الشعراء يخصون القصائد بالمدح حتى تغنى قصائدهم و تُذكر في هذه المناسبة ، فكان لهذا الفن مكانة خاصة في الشعرية الأندلسية ، وسنعالج المقال من خلال النقاط التالية :

-تعريف المدح والمديح النبوي.

- التعريف بابن جابر الأندلسي.

-المدائح النبوية في شعر ابن جابر الأندلسي.

أولا:تعريف المديح النَّبوي:

أ- لغة:

ورد المدح في العديد من المعاجم اللغوية تحت مادة (مَدَحَ)عرفه **ابن منظور** في معجمه قائلا: « المدح نقيض الهجاء ،وهو حسن الثناء .والمدائح :جمع المديح من الشّعر الذي مُدحَ به ،كالمِدحَة والأمدُوحة ورجل مادح :وتمدَّح الرَّجُل: تكلَّفَ أن يمدح .ورجل **مُمدَّحٌ** أي ممدوحٌ جدًّا: ومدح الشاعر وامتدح ،وتمدَّح الرجل بما ليس عنده :تشبَّعَ وافتخر»[1].

وهذا نفس ما جاء به **الخليل بن أحمد الفراهيدي** في كتاب العين حين قال أن: « المدح: نقيض الهجاء وهو حسن الثناء .والمِدحة اسم المديح ،وجمعه مدائح ومُدح ،يقال مدحته وامتدحته »[2].كما ورد معجم المقاييس على أنه« يدل على وصف محاسن بكلام جميل. ومَدَحَهُ يمدحه مدحًا :أحسن عليه الثناء »[3].وقال فيه **الجرجاني** أنه« الثناء باللّسان على الجميل الاختياري قصدا »[4].

مما سبق نلحظ أن التعريف اللغوي للمدح جاء بمعنى الثناء والتغني بالخصال الحميدة والإشادة بمحاسن الممدوح . وبهذا يكون المقصود بالمديح النبوي ذلك الفن الشعري الذي يتناول شخصية النبي صلي الله عليه وسلم بالثناء والإشادة بخصاله الحميدة ومعجزاته صلى الله عليه وسلم

ب- اصطلاحا:

يعد المدح فناً من الفنون الشعرية ، موضوعه ذكر محاسن الممدوح سواء بمقابل أو بدون مقابل، يقول **إميل ناصف** في ذلك «هو فن من فنون الشعر الغنائي يقوم على عاطفة الإعجاب ،ويعبر عن شعور تجاه فرد من الأفراد، أو جماعة أو هيئة ، ملكَ على الشاعر إحساسه ،وأثارَ في نفسه روح الإكبار والاحترام لمن جعله موضع مديحه. »[5].

وقال **أحمد الهاشمي**: «هو الثناء على ذي شأن بما يستحسن من الأخلاق النفيسة ،كرجاحة العقل والعفة والعدل والشجاعة »[6]

لقد تفنَّن الشعراء في فن المدح وتعددت شخصيات الممدوح وتنوعت، فنجد مدحًا موجها لشخص من عامة الناس ، ومدحاً لحبيب ،ومدحاً للشيوخ والعلماء، ومدحاً للسلاطين والوزراء، ومدحا للنَّبي صلى الله عليه وسلم وهو ما يهمُّنا في هذا المقام .

تتمثَّل **المدائح النبوية** في تلك القصائد التي نظمها الشعراء في مدح **النبي صلى الله عليه وسلم** ،ذكروا فيها صفاته الخلقية والخُلقية وشوقهم لرؤيته وزيارة قبره صلى الله عليه وسلم ، وغيرها من الأماكن المقدسة التي ترتبط بحياته، كما تطرقوا لمعجزاته ومراحل سيرته النبوية ومتتبعين لغزواته صلى الله عليه وسلم ومعترفين له بتقصيرهم في أداء واجباتهم الدينية، وطامعين في شفاعته عند الله يوم القيامة.

وهذا ما أكد عليه **جميل حمداوي** في مؤلفه لما قال: « هو ذلك الشعر الذي ينصب على مدح النبي صلى الله عليه وسلم بتعداد صفاته الخلقية والخلقية،وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياة الرسول الكريم مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية،ونظم سيرته شعراً والإشادة بغزواته وصفاته المثلى» [7]

كما عرفها **شهاب الدين محمد بن أحمد الإشبيهي** في كتابه فقال: « هو لون شعري صادر عن العواطف النابعة من قلوب مفعمة بحب صادق وإخلاص متين للنبي الكريم »[8].

وهكذا اتفق المؤلفون والنقاد على أن المديح النبوي غرض من أغراض الشعر انبثق من غرض المدح واختص بشخصية عظيمة يقدسها المسلم فاهتموا بالكتابة الشعرية في حضرته العلية ذاكرين مناقبه و خصاله الخَلقية و الخُلقية وكل ما تعلق بسيرته العامرة من أرض زارها أو منبر وقف عليه فأصبح غرض المدح الذي ارتبط بشخصية الرسول الأكرم فنا شعريا قائما بذاته .

بعد نشأة فن المديح النَّبَوي ، تأثر المداحون بأغراض شعرية أخرى اقترنت مع هذا الفن كشعر الزهد والتصوف وذلك لما بينهما من علاقة روحانية دينية . هذا ما أكده الدكتور **زكي مبارك** حين قال: « أن المدائح النبوية من فنون الشعر التي أذاعها التصوف ،فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية ،وباب من الأدب الرفيع :لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص »[9] .

ظهر هذا الفن مع بداية الدعوة الإسلامية مع ما كان يتغنى به أهل المدينة ترحيبا بمقدم رسول الله إليهم في هجرته المباركة ، وكذا قصائد شعراء الرسول ك:**حسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير** وغيرهم من الشعراء. ثم انتشر بانتشار دعوة الإسلام ، و تطور على يد شعراء المتصوفة الذين ظهروا في نهاية العصر العباسي ،في مقدمتهم **شرف الدين البوصيري** صاحب الهمزية والبردة المشهورتين في هذا الفن. وغيره من الشعراء الذين سلكوا مسلكه في هذا المجال ، فقد كان الشعراء يتنافسون على مر الأزمنة في مدح رسول الله واشتهر في كل زمن أدبي شعراء اختصوا بهذا الفن ، بعضهم اشتهرت له قصيدة و بعضهم أفرد لهذا الفن الدواوين الكثيرة ، ويمكن اعتبار قصيدة **الأعشى** التي يقول في مطلعها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعاداك ما عاد السليم المسهدا [10]

يمكن اعتبارها أولى قصائد المديح التي قيلت في مدح خصال رسول الله ولعل قول الشاعر خير دليل حين قال:

نبي يرى ما لا ترون و ذكره أغر لعمري في البلاد و أنجدا

وبعد ذلك مَدَحه شعراء عصر صدر الإسلام ممن عايشوا النبي ككعب ابن زهير و حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وغيرهم و هم من الصحابة ، ثم لحقهم بعض التابعين من بني أمية وبعض شعراء بني أمية وبني العباس، فظهر المدح أحيانا على شكل قصائد في مدح آل البيت نتيجة الاتجاهات المذهبية التي اشتد بروزها في هذه الأزمنة ، فنجد من القصائد المشهورة مدحية **الفرزدق** في زين العابدين بن الحسين بن علي كرم الله وجهه ، و قصيدة **الكميت** التي امتدح فيها آل فاطمة الزهراء وأبيها رسول الله ، وعلى هذا المنوال كتب **الشريف الرضي** ، وفي مصر ظهر الإمام البوصيري وقصائده المشهورات ، وابن نباتة المصري وغيرهم ، وكان لشعراء المغرب الإسلامي والأندلس حظ وافر من شرف الكتابة في مدح رسول الله ، وَكَثُرت الكتابة في هذا

الفن مع بداية الاحتفالات بمولد رسول الله فأصبح يطلق على القصائد التي تغنى في هذه المناسبة " شعر المولديات " .

اشتهر الكثير من الشعراء والفقهاء في المغرب الإسلامي بمدح رسول الله ومنهم القاضي عياض ولسان الدين ابن الخطيب وابن جابر الأندلسي وهو المعني بالدراسة في هذا البحث .

يعد **ابن جابر الأندلسي** من أهم شعراء الأندلس الذين تفنَّنوا في نظم المدائح النبوية.

ثانيا: التعريف بابن جابر الأندلسي:

« هو شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن على بن جابر الأندلسي الهوَّاري المالكي الأعمى. ولد بألميرية وهي من أعمال الأندلس سنة698هـ ،ونشأ فيها طالبا للعلم . تتلمذ على عدد من علماء عصره ، فقرأ القرآن والنحو على "ابن يعيش" ،والفقه على "محمد بن سعيد الرندي وسمع صحيح البخاري على " الزواوي"»[11]

في سنة 738هـ خرج ابن جابر من الأندلس قاصدا الحج، واتخذ لنفسه صاحبا في رحلته وهو **أبو جعفر أحمد بن يوسف الرّعيني**، الذي لازمه في ترحاله حتى أخريات حياته.

مرّ في رحلته إلى مصر وأخذ فيها العلم عن بعض شيوخها منهم ـ **أبو حيان النحوي محمد بن يوسف** ، وتوجه إلى دمشق ،بعد حجه فمكث فيها حتى سنة 743هـ، ثم توجه صوب ألبيرة حيث أمضى فيها بقية حياته.[12]

حج ابن جابر مع صديقه غير مرة بعد أن أقاما في إلبيرة، لكنه افترق عنه، لما تزوج ابن جابر في مدينة إلبيرة ،وسكن فيها.توفي فيها سنة 780هـ[13].

عرّفه **لسان الدين ابن الخطيب** في إحاطته قائلا: « رجل كفيف البصر، مدلٌّ على الشعر ،عظيم الكفاية والمنّة على زمانه، رحل إلى المشرق ،وتضافر برجل من أصحابنا يعرف بأبي جعفر الإيبيري ، صارا رُوحين في جسد، ووقع الشعر منهما بين لَحَيَي أسد ،وشمّرا للكُدية[14]، فكان وظيفة الكفيف النَّظم، ووظيفة البصير الكَتب، وانقطع الآن خبرهما »[15].

كان **ابن جابر** إماما وأديبا بارعا في النثر والنظم ،له مؤلفات عديدة أوَّلها "**الحلة السّيَرا في مدح خير الورىّ**"والتي عُرفت ببديعية العميان .و له كتب كثيرة في اللغة والنحو والبلاغة والعروض منها: "**شرح ألفية ابن مالك**"،" **شرح ألفية ابن معطي**" ،و"**رسالة في مولد النبي صلى الله عليه وسلم**"، و"**المنحة في اختصار الملحة**" ،وله قصائد وأراجيز عدة في العروض والنحو

واللغة منها "غاية المرام في تثليث الكلام" ،"منظومة في المقصور والممدود"[16] ،وديوان"المقصد الصالح في مدح الملك الصالح" ،وديوان" نفائس المنح وعرائس المدح" ،وديوان العقدين في مدح سيد الكونين" . هذا الديوان الأخير يحتوي على أكثر من ثمانية ألاف بيت شعري في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثالثا:المدائح النبوية في شعر ابن جابر الأندلسي:

لقد برع شاعرنا في نظم المديح النبوي وتفنن في ذلك ،فقد خلف لنا ديوانا كامل خصصه لهذا العرض وهو "ديوان العقدين في مدح سيد الكونين " أو "الغين في مدح سيد الكونين" تحدث محقق الديوان عن اختلاف التسمية قائلا:«رأينا اختلافا بسيطا في عنوان الديوان ،ففي نسخة العراق وجدناه(نظم العقدين في مدح سيد الكونين) في بدايته ونهايته وكذلك وجدناه أيضا في نسخة دار الكتب المصرية .وأما في نسخة برلين ،فرأينا العنوان(الغين في مدح سيّد الكونين) واعتمد ذلك العنوان خير الدين الزركلي وعمر فروخ. وبناء على ما سبق رجحنا العنوان الأول لأنه ورد في أقدم النسخ المخطوطة وأكملِها ،ولكننا مع ذلك لم نُهمل العنوان الثاني وإنما جعلناه أسفل العنوان الأول بين قوسين إتمام للفائدة ومنعا لأي لبس »[17].هذا يدل على أمانة المحقق إذ انه لم يغفل العنوان الثاني، بل قام بوضعه أسفل العنوان حتى يَضعَ القارئ للديوان في الصورة..

تحدث الشاعر عن مدحه لرسول الله قائلا:

بِمدحِ رَسُولِ الله أهنَا وأَبهَجُ وأُوقِنُ أَنَّ الضِّيقَ عَنّي يُفرجُ
به أَرتَجِي دَارَ النَّعيمِ وأتَّقِي لَهِيبَ جَحِيم حَرُّهُ يَتوَهَّجُ
وكَيفَ تَمسُّ النَّارُ جِسمِي وحُبُّهُ بلَحمِي وعَظمِي والمِفَاصل يُمزجُ[18]

حيث يعتبر الشاعر أنه بمدح رسول الله قد تبتعد عنه النار وتستحي من أن تمس جسمه الذي تطهر بمدح رسول الله ، و هذا اعتقاد منه بشفاعة رسول الله وإيمان بما جاء على لسان النبي أن المرء يحشر مع من أحب، وفيه ارتباط وثقة بفائدة مدح الرسول الكريم.

ولأن الشاعر كان يرى أن كل من مدح النبي يناله شرف كيفما كان ، جعل للبحور الشعرية روحا تحس ، ومدح النبي على أغلب بحور الخليل حتى ينالها كلها شرف مدح رسول الله ، وفي هذه الأبيات ذكر للبحور التي كتب على وزنها تلك المدائح النبوية قائلا:

وكَم بَحرَ شِعرٍ خُضتُ فِيهِ لمدحِه فَمِن كُلِّ بَحرٍ درَّ معناه أَخرُجُ

تَفنَّنتُ في نَظمِي فأَرجُزُ تَارة وأُرملٌ في مَدحِ الرَّسُولِ وأَهزِجُ
ومِن مَدحِهِ عِندِي طَويلٌ ووَافرٌ على كُلِّ ضَربٍ جَاءَ في النَّظمِ يُنسَجُ
ومُقتضَبٌ من كُلِّ مَعنى مضارع لزَهرِ الرُّبى إذ بَات وهو مُدبّجُ
خَفِيفٌ على الأَسماَعِ منّا مَدِيده بَسِيطُ المعَانِي كَامِلُ الحُسنِ مُبهِجُ
ولي خَببٌ في مَدحِه مُتواصِلٌ ومُنسَرِحٌ كالماءِ إذ يَتَثَجَّجُ
مَدِيحٌ به جَيدُ المعَاني مذوّق ومُفرَقُ أَنواعِ المعاني متوَّجُ[19]

نلحظ من خلال هذه الأبيات الشعرية تنوُّع وتعدد البحور الشعرية التي كتب على وزنها منها: بحر الرجز، بحر الرمل، البحر الطويل، البحر الوافر، البحر المديد، البحر البسيط، البحر المنسرج، البحر المتقارب، البحر السريع، وهذا دليل على وفرة المادة الشعرية وكثرت المدائح النبوية لدى ابن جابر .

وقد تطرق **ابن جابر الأندلسي** في مدائحه النَّبوية لكثير من الموضوعات ضمنها قصائده ، فلم تكن المدحة عنده بقالب شعري أو موضوعي واحد ، ومن موضوعات مدائحه ما يلي:

1 – الشوق إلى رؤية النبي صلى الله عليه وسلم:

يقول شاعرنا في أول قصيدة في ديوانه:

رَحَلُوا فَكَيفَ يَطيبُ بعدُ ثَواءُ أَم هل لِدَاءِ الشَّوقِ مِنكَ دَواءُ
فَعدَت بكَ الأيَّامُ فانتَهَضتْ بهِمِ هِممٌ بها تَتمسَّكُ الجَوزاءُ
قومٌ تُضِيءُ مع الدُّجى عزَمَاتُهم حتى تُمِيطَ قِناعَها الظَّلماءُ
فإذا هُم سَمعوا بذكر محمدٍ طَرَدَ المِنامُ تَأوُّهٌ وبُكاءُ
إن أوقَدوا فَمن الجَوانحِ نَارُهم أو أوردوا فَمِن الجُفونِ الماءُ[20]

صور لنا ابن جابر في هذه الأبيات شدة الاشتياق لرؤية النبي صلي الله عليه وسلم وإذ بمجرد ذكر اسم الرسول يحرم النوم وتنزل دموع الشوق بغزارة ، والحنين في هذه الأبيات لرسول الله و صحبه الكرام، فهو يشتاق لزمان رسول الله وصحابته الذين عاشوا معه بدايات البعثة الإسلامية .

وقال أيضا: أَرابي من أَلِيمِ الشَّوقِ مَيِّتًا فلَيتَ الدَّهر يَجمعُنا ولَيتَا
هُمُ رحلوا و ها أنذا مُقيمٌ فيا نَومي بحقّك إن نَأَيتَا
ويا دَمعِي لئن أَصبَحتَ تَجرِي فلا عَتبٌ عَليك إذا جَريتَا[21]

اعتبر الشاعر نفسه ميتا من شدة ألم الشوق وتمنى لنفسه الموت. كما خاطب دموعه وقال لها لا عتب عليك إن جريت من شدة ألم الشوق إلى الحبيب المصطفى.

وقال أيضا: لله قَومٌ دُموعَ العين قد سَكبوا شَوقًا إليه و جَادُوا بالذي كَسَبُوا

نُفوسَهم أَتعبُوا حتى إذا وَصلوا أَرَاهم وَصلَه أضعَافَ ما تَعبُوا[22]

لم يصور لنا الشاعر فقط شدة شوقه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقط بل صور لنا كذلك شوق المسلمين المتعطشين للقاء الحبيب المصطفى الذين خسروا ممتلكاتهم وأتعبوا أنفسهم وشدوّا الرحال عازمين على زيارته صلي الله عليه وسلم، وفي هذا يبين لنا من الناحية الاجتماعية كيف كان الناس يجهزون أنفسهم للخروج إلى الحج ببيع ممتلكاتهم ، ينسيهم شوق الزيارة لرسول الله وحج بيت الله الحرام مالهم و أنفسهم ،وأنهم سيعودون من الحج تنقصهم كثير من أغراضهم الحياتية ، لكن كل هذا فداء لزيارة روضته الشريفة شوقا إليه .

2 – مدح المدينة المنورة و مكة والأماكن المقدسة :

لقد تفردت المدينة المنورة عن جميع بلاد المسلمين لأنها ضمت جثمان **الرسول صلى الله عليه وسلم** وهذا ما جعلها أشرف البلاد قال فيها ابن جابر:

وإن أَرَدتَ الثَّوابَ حَقًّا فاجعلْ لَدى طِيبةَ الثواءَ

والثِمْ ثَرى تُربِها لِتُعطى في دَهرِكَ الأمنَ والثراءَ

جَاوِرْهُ إنَّ الكَريمَ أضحى بِجارِهِ يُكثَرُ اعتِناءَ[23]

وقال أيضا:

لو كَان يُصنَع من كريمِ تُرابِهَا كَحلٌ غَدَا للعَينِ فيهِ شِفاءُ

وَلَو أَنَّ مَوردِهَا القَراحَ يَذوقُهُ ثَمِلٌ لما طابتْ له الصَّهباءُ[24]

في هذه الأبيات وفق الشاعر في إعلان شوقه و وصفه لمدينة رسول الله ، حيث ينام جسده الشريف ، فبالغ في وصف الأرض الطاهرة حتى أنه تخيل لو أن ترابها يُصنع منه كحل لكان فيه شفاء للأرمد ، ولو أن الثمل السكران شرب من مائها لنسي خمرته التي أدمنها و هذه تعابير قد تكون فيها بعض المبالغة التي تجوز للشعراء ، لكنها تشرح لنا تعلق المسلم بطيبة الطاهرة ، مدينة الرسول الأكرم .

وفي ماء زمزم قال: وَرِدَ بنا زَمزمًا فإنَّا نُكفَى بهِ الماءَ والغذاءَ

فإن أصاب الجُسومَ سُقمٌ أَصبحَ من سُقْمِها شِفاءَ
طعامُ طُعمٍ شِفاء سُقمٍ عن سيِّد الخلق فيه جاءَ
وحَالةَ الشُربِ منه نُعطى إجابةً تُنجحُ الدعاءَ[25]

هذا البيت تفصيل لما سبق ذكره ، فقد تحدث الشاعر عن بركة ماء زمزم وعدَّه كافيا ، فهو الماء وهو الطعام قال انه شفاء للأجسام من الأمراض ومن شربه وتوجه بالدعاء يستجاب لدعوته ، وهذا مصداق لمعنى قول رسول الله أن زمزم لما شُرب له .

وفي منن وعرفات قال:

وفي منى تُبْلغُ الأماني وبالصَّفَا نُرزَقُ الصَّفاءَ
في عَرفاتٍ عَرَفتُ جودًا لله كَم نعمةٍ أفاءَ[26]

وعن الحجّ قال:

ألا لَيتَ شِعري هَل أَرانِي ليلةً أَسوقُ المِطايَا بين مَكَّةَ والعرجِ
إلى بلدٍ مَن حَلَّلهُ كان آمِنًا بهِ وَقَّتَ الله المواقيتَ للحَجِّ
بِهِ كعبةُ اللهِ التي لَثُمُ ركنِهَا نَجاةٌ من البَلوَى وأَمنٌ من الهَرْجِ
فَتلكَ يمينُ الله في أَرضهِ ومَن يُقبِّلْ يمينَ الله يَومًا فَقد نَجي
هيَ الكعبةُ الغرَّاءُ لا شيءَ مثلُها ولا الكاعبُ العذراءُ تُلحَظُ عن غُنجِ
فيا طِيبَ أوقاتي إذا أنا جِئتُها وللركبِ أصواتٌ لدى الثَّجِّ والعجَ
بلادٌ بها كانَ الرسولُ وصَحبُهُ فمن أجلِها يَسري لها الراكب المزجي[27]

تحدث الشاعر هنا عن ركن من أكان الإسلام آلا وهو الحج وأقر أن الكعبة المباركة لا شيء في الدنيا يضاهيها في بلاد كان بها الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام ومدح منى وعرفات ، وكأنه يقتفي أثر رسول الله يمدح كل أرض زارها و مشى بقدمه الشريفة على ترابها فجعله طاهرا مطهرا إلى يوم القيامة .

3 – وصف النبي صلي الله عليه وسلم:

وصف لنا ابن جابر من خلاله مدائحه صفات **النبي صلى الله عليه وسلم** الخلقية والخلقية سنذكر منها على سبيل المثال قوله:

ولَأَنتَ أَفصحُ ناطقٍ في موقفٍ خَرِسَتْ لشدةِ هَولِه الفصحاءُ

يا خيرَ خلق الله فازت أمةٌ قَد تابعوكَ ولو عَصَوا وأَساؤوا
أنتَ الشهيدُ عليهمُ وهمُ على كلِّ البريةِ غي غدٍ شهداءُ
أنت الأمين على رسالةِ ربّهم لهمُ وهُم في أرضه أمناء
أنت المقفّي الحاشرُ الماحي الذي يمحو ظلامَ الشركِ منهُ ضياءَ
ولأنت أحمد في الورى ومحمدٌ ومع العناية تكثر الأسماءَ[28]

من بين صفاته **صلى الله عليه وسلم** التي أوردها الفصيح الأمين المقفى الحاشر وأشار إلى كثرة أسماءه: "ومع العناية تكثر الأسماء".

وقال أيضا:

ما أَبصرت في الوجودِ عينٌ أكثر من وجهِهِ بهاءَ
ما حَملت كالرَسول أُنثى فضلا من الله واصطفاءَ[29]

هذه الأبيات وصف لنا جمال وجه **النبي صلى الله عليه وسلم** فلم تبصر عين في هذا الوجود وجها كوجهه، وأضاف أيضا انه لم تحمل أنثى كمثله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وقال أيضا:

عَطوفٌ على المِسَاكينِ لا كِبَرَ عنده مُقيلٌ مقيمٌ كلّ من يتعوَّجُ
حليمٌ كريمٌ لا يفوه بفاحش ولا قائل سوءا ولو جاء مُزعجُ
فصيحٌ صبيحٌ أزهرُ اللون بادٍ مليحٌ كَحيلُ الطرف أشكال أدعجُ[30]

ومن بين الصفات التي أوردها لنا **ابن جابر الأندلسي** في مقطوعاته الشعرية نذكر: الحليم ،الكريم، ذو الوقار،الشفيع،العطوف على المساكين ،الفصيح ، المليح، و في هذا جمع بين وصف صفاته الخَلقية و الخُلقية .

4 – معجزات النبي صلى الله عليه وسلم:

ذكر لنا في ديوانه العديد من معجزات **النبي صلى الله عليه وسلم** واعترف هو بنفسه بأن عددها لا يعد ولا يحصى في قوله:

ولَقد أَتيتَ بمُعجِزات مَالها عددٌ يُحيط بها ولا إحصَاءُ[31]

وقال أيضا:

وشَقَّ له في أُفقِه قَمرُ الدُّجى وكَم شاهد منهم لِذاك ورَائي

ولم يَخفَ تَظليل الغَمامة فَوقَه إذا هو مَاضٍ في التَّهجيرِ وجائي[32]

أشار هنا إلى معجزة انشقاق القمر ومعجزة تظليل الغمامة له وهو يمضي في الصحراء.

وعن معجزة غار ثور قال:

وحَجبَت يوم الغَارِ عن أَبصَارِهم فَمضَوا وما نَجحَت لهَم آراءُ
وقفت حمتم الأيك فيه وأسْبَلت للدَّوح أَغصان لها أفيانُ
والعَنكبوت أَجاد محكم نسجه لِيكونَ فيه عن العداة خفاءُ
فَمضوا وقَالوا لو غَدا أَحدٌ هنا ما سَدّهُ للعَنكبوتِ رِداءُ[33]

تحدث هنا إلى قصة غار ثور لما احتمى فيه **الرسول صلى الله عليه وسلم** هو صاحبه أبو بكر الصديق رفيقه في الهجرة من ملاحقة كفار قريش لهما،وسرد لنا قصة العنكبوت التي نسجت ستارا غطى مدخل الكهف، فما جاء الكفار وشاهدوا ذلك النسج قالوا لو أن أحد دخله لتمزق النسيج، ونجئ الله به رسوله وصاحبه في تلك الواقعة.

وفي مُعجزة الإسراء والمعراج قال:

أَسرى به للسَّماءِ حتى زَانَ به الأرضَ والسماءَ
وقَابَ قوسين كان قربًا عزَّل من الله واحتفاءَ
ما كَان هذا دُنوَّ جِسم أدناه ذُو العَرشِ كَيفَ شاءَ[34]

لمح الشاعر في هذه الأبيات إلى قصة الإسراء والمعراج لما أسرى الله بنبيه صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى وبعد الإسراء عرّج بيه جبريل عليه السلام إلى السماوات السبع إلى ان بلغ سردت المنتهى. وفي هذه الليلة المباركة فرضت الصلاة، فكانت خمسين صلاة لكن الرسول صلى الله عليه وسلم أشفق على أمته، وكان يناجي الله سبحانه وتعالى بأن يخفضها حتى وصلت خمس صلوات في اليوم والليلة وتعادل في أجرها خمسين صلاة.

وعن حادثة شق صدر الرسول قال:

جبريلُ شقَّ فؤاده فَملاه من علم وإيمان بمشهد قربه[35]

في هذه الأبيات السابقات ، ظهر جليا تأثر الشاعر بالسيرة النبوية منذ ان كان النبي صبيا حين حدثت له حادثة شق الصدر ، إلى أن أصبح نبيا ، وبذكره لحادثة غار ثور وحادثة الحمامة والعنكبوت ، وهي القصة التي يرى كثير من علماء التاريخ و السيرة أنها قصة ضعيف سندها

ولكن يظهر من ديوان ابن جابر أن القصة كانت مشهورة في زمانه ، حتى و إن كان سندها ضعيفا فقد توارثها الأقدمون قبلنا .

5 –ذكر غزوة بدر:

تحدث ابن جابر الأندلسي عن غزوة بدر قائلا:

بدَا يومَ بَدرٍ وهو كالبَدرِ حَولهُ كواكبٌ في أُفق المواكِبِ تَنجَلِي
وجِبريلُ في جُندِ الملائكِ دُونَه فلم تُغن أَعدادُ العَدوِّ المخذل
رَمى بالحَصَى في أَوجُهِ القَوم رَميةً فشرَّدهم مثل النَعامِ بمجهل
فَفَروا سِراعًا يَهرُبون كَأنما تحوَّل منهم بطشُ أيد لأرجُل[36]

أشاعر الشاعر في هذه الأبيات إلى "غزوة بدر" والتي وقعت في السابع عشر من رمضان في العام الثاني من الهجرة بين المسلمين بقيادة **رسول الله صلى الله عليه وسلم** وبين قبيلة قريش ومن حالفها بقيادة عمرو بن هاشم المخزومي القرشي، وقد سميّت بهذا الاسم نسبة إلى منطقة بدر التي وقعت فيها المعركة وانتهت بانتصار المسلمين على قريش.

6 – طلب الشفاعة من الرسول صلى الله عليه وسلم:

قال في ذلك **ابن جابر الأندلسي**:

وأقول يا خير البرية مذنبٌ لَعِبت به الآمَال والأَهوَاءُ
وأَتَاك يَسأَلُ منك حُسنَ شَفَاعَة وفؤاده خوفَ الذَّنوب هواء
صَغُرت كبارُ ذُنوبه لما أتى ولعِظم جاهك تَصغُر الأَشياءُ
من أَمَّ بَابَك لا يخيبُ رَجاءُه ومتى يَخيبُ لدى الكَريم رَجاءُ[37]

من بين الموضوعات التي وردت في مدائح ابن جابر هو الاعتراف بالذنوب والخطايا من تقصير في العبادات وارتكاب المنكرات وطلب الشفاعة من الرسول صلي الله عليه وسلم يوم القيامة

7 – محبة الكائنات الحية للرسول صلى الله عليه وسلم:

حدثنا ابن جابر عن قصة الغزالة التي شكت إلى رسول الله قائلا:

لَقد عَطفتَ على الغَزالَة عندما ذَابت لِفرقَة خشفها الأَحشاءُ
سَرَّحتها فَمَضت وقُلتَ لها ارجِعي فَأَتَت وليس لِعَودها إبطاءُ
سَمِعُوا أَنينَ الجِذعِ حينَ تَركته لو لم تَعدهُ لعادَ وهو هَباء[38]

سرد علينا في هذه الأبيات قصة غزالة تم اصطيادها ومر عليها **الرسول صلى الله عليه وسلم** وشكت إليه أنها تريد إرضاع صغارها ،فسرحها الرسول بأن تذهب لترضعهم وتعود ، ووفت الغزالة بوعدها وعادت بسرعة ، وقد ورد ذكر هذه القصة في كتاب معجزات الرسول« إن معرفة الظبية لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها، وهي أسيرة ،مشدودة إلى العمد ،واستشفاعها به عند الأعرابي الذي صادها لتذهب كي ترضع خشفتيها ثم تعود إليه الأمر ،لا يستبعد عقلا بعد ثبوت معرفة الشجر والحجر وسلامها عليه صلى الله عليه وسلم، وإيمانه برسالته [39].»

8 –الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم:

كان شاعرنا في أغلب قصائده يختمها بالصلاة على **النبي صلى الله عليه وسلم** وعلى صحابته الكرام من ذلك ما قاله في خاتمة البعض منها

قال:

صَلَّى الإلهُ على النَّبي المِجْتَبَى ما رَجعت في بَانة ورقَاءُ
وعلى صَحابته الألى بهم عَلت في النَّاسِ هذي المِلَّة البَيضاءُ[40]

وقال أيضا:

صَلَّى عَليكَ الله ما صَدع الدُّجى صُبحٌ تَلألأ ضَوءُه وتَبلَّجَا
وعلى صَحابتِكَ الكِرامِ تَحيَّةٌ كالمِسكِ أَضحَى عرفه متأرَّجَا[41]

خاتمة:

كانت هذه أهم الموضوعات التي طرقها **ابن جابر الأندلسي** في مدائحه النبوية، فهو كغيره من الشعراء المداحين لرسول الله ، تحدث عن صفاته الخَلقية من شكل و مظهر كما جاء في الأثر النبوي و في آثار الصحابة ، وكما اهتم بصفاته الخُلقية ، وكيف كان يعيش بين الناس ، و كيف كان حديثه و تعامله مع المخلوقات من بشر وحيوان وجماد .كحادثة حنين الجذع ، و ذكر لنا بعض الأماكن التي ترك النبي فيها أثرا ، وبالإضافة إلى معجزاته الخالدة، بعضها أثبتته كتب السير و بعضها ضعفته ، لكن ذكره لها يبين أنها روايات عن سيرة رسول الله قديمة توارثناها جيلا بعد جيل .

لقد تميز **ابن جابر الأندلسي** في فن المديح النبوي، إذ ترك لنا ديوانا كاملا خصصه لهذا الغرض محاولا أن يمدح النبي بكل بحور الخليل التي يكتب عليها الشعراء حتى يأخذ كل بحر حقه من شرف مدح **نبي الله صلى الله عله و سلم** ، وكان هدفه أن يربط الناس اسمه بهذا الفن، وقد كان له هذا الشرف ، فلا يمكن أن يذكر ابن جابر إلا ويذكر معه فن المديح النبوي ، هذا الفن الذي انتشر ولا يزال لارتباطه بأقدس شخصية في الإسلام ، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة و السلام .

هوامش:

[1]ابن منظور: لسان العرب ،دار المعارف النيل القاهرة .د.ت. المجلد الخامس مادة– مدح

[2]الخليل بن احمد الفراهيدي:كتاب العين مرتبا على حروف المعجم، ترتيب وتحقيق عبد الحميد هنداوي ،دار الكتب العلمية بيروت لبنان. الطبعة الأولى 2003م /1424هـ ،الجزء 4. ص126.

[3]أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة تحقيق وضبط عبد السلام هارون ،دار الفكر للطباعة والنصر والتوزيع .د.ت، الجزء الخامس ص308.

[4]على بن محمد السيد الشريف الجرجاني:معجم التعريفات تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير القاهرة.د.ت.ص173.

[5] إميل ناصف :أروع ما قيل في المدح، دار الجيل بيروت الطبعة الأولى 1413هـ/1992م ص7

[6] أحمد الهاشمي: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف ،بيروت لبنان، د ط د ت، ج2، ص26

[7] جميل حمداوي: شعر المديح النبوي في الأدب العربي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت ،سنة2007، ط1، ص2

[8] شهاب الدين محمد بن أحمد الإشبيهي: المستظرف من كل فن مستظرف، دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان ، 1422هـ/2001م، ط1،ص342.

[9] زكي مبارك :المدائح النبوية في الأدب العربي ، دار المحجة البيضاء د.ط.د.ت.ص27.

10 ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، شرح و تعليق د. محمد حسين ، مكتبة الآداب مصر ، القصيدة 17 الصفحة 135 .

11ابن جابر الأندلسي :الحُلّة السّيرا في مدح خير الورى ،تحقيق على أبو زيد، عالم الكتب دمشق الطبعة الثانية 1405هـ /1985م ص11

[12] ينظر المرجع نفسه ص12

[13] ينظر المرجع نفسه ص12بتصرف

[14]أشار ابن الخطيب في حاشية الكتاب انه جاء في نفح الطيب للمقري: "وشمّر للعلم وطلبه، فكان وضيفة الكفيف..." راجع نفح الطيب ج10 ص155.

[15] ابن الخطيب :الإحاطة في أخبار غرناطة شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ الدكتور يوسف على طويل ،منشورات دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الثانية سنة 2014 المجلد الثاني ص212

[16]ابن جابر الأندلسي:نظم العقدين في مدح سيّد الكونين أو الغين في مدح سيّد الكونين ،تحقيق الدكتور أحمد فوزي الهيب ، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع بالطبعة الأولى 1426هـ /2005م ص7

[17] المصدر نفسه ص15

[18] المصدر نفسه ص162

[19] المصدر نفسه170

[20] المصدر نفسه ص23

[21] المصدر نفسه ص89

[22] المصدر نفسه ص84

[23] المصدر نفسه ص30

[24]المصدر نفسه ص24

[25] المصدر نفسه ص32

[26] المصدر نفسه ص33

[27]المصدر نفسه ص125-126

[28]المصدر نقسه ص26

[29] المصدر نفسه ص32

[30]المصدر نفسه ص128

[31] المصدر نفسه ص26

[32] المصدر نفسه ص37

[33] المصدر نفسه ص27

[34]المصدر نفسه ص31

[35] المصدر نفسه ص69

[36] المصدر نفسه ص449

[37] المصدر نفسه صفحة 24

[38] المصدر نفسه ص26

[39] ابن خليفة عليوي :معجزات النبي المختار من صحيح الأخبار، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ،الطبعة الأولى 1411هـ-1991م ص84

[40] المصدر نفسه ص28

[41] المصدر نفسه ص124